زيارة الأربعين

تحقيق حول زيارة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾
يوم الأربعين في سنة ٦١ للهجرة.

الشيخ حسن آل عصفور

زيارة الاربعين

التهذيب: عن أبي محمد العسكري ﴿عليه السلام﴾ قال: علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

ورد هذا الحديث في عدّة مصادر من الكتب الحديثية والمزارات والأدعيّة ..! وهو يوافق الأخبار الخاصة الدالة على فضيلة العلامات الخمس، وليس البحث في مقام اثباتها، ولا في فضيلة زيارة الأربعين، فإن ذلك ثابت بالنصوص العامة والخاصة، وإنما في الكلام في زيارة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ يوم الأربعين في سنة ٦١ للهجرة. قال الشيخ ابن طاووس: وجدت في المصباح أن حرم الحسين ﴿عليه السلام﴾ وصلوا المدينة مع مولانا علي بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ يوم العشرين من صفر، وفي غير المصباح انهم وصلوا كربلاء أيضًا في عودهم من الشام يوم العشرين من صفر، وكلاهما مستبعد ! هذا كلام الشيخ ﴿رحمه الله﴾ تبعًا لشيخه وعدّة مشايخ ذهبوا لذلك ولهم أدلة، وفي قبالهم أدلة تدل على وصولهم كربلاء يوم العشرين !! والبحث يقع في ستّ تساؤلات:

الأول: هل طريق الشام يمرّ على كربلاء !!؟

الثاني: هل مرّ أهل بيت الإمام ﴿عليهم السلام﴾ في عودتهم من الشام على كربلاء !!؟

الثالث: هل كان وصولهم يوم الأربعين !!؟

الرابع: هل الأربعين سنة ٦١ للهجرة !!؟

الخامس: هل كان جابر بن عبد الله في كربلاء يوم الأربعين سنة ٦١ للهجرة !!؟

السادس: هل حدث لقاء بين جابر والإمام السجّاد ﴿عليه السلام﴾ في كربلاء في نفس السنة !!؟

استبعد المحدّث النوري في اللؤلؤ والمرجان بل رمى من يروي ذلك بالجهل والتجرّؤ، والأساطير، وحاصل كلامه: بعد الندم الظاهري للرجس الخبيث يزيد، وتخيير آل الله بين البقاء في الشام والعودة إلى المدينة، خرجوا إلى المدينة، ولا

نجد ذكرًا للعراق وكربلاء، ولم يكن في قرارهم ذلك، فالطريق إلى العراق يفترق من نفس الشام عن طريق الشام إلى الحجاز، ولا يجمعهما قدر مشترك كما سمعناه من المتردّدين، ويتضح من اختلاف الطول الجغرافي لهذه البلدان الثلاثة، فمن يعزم الذهاب من الشام إلى العراق فإن عليه أن يتّجه من هناك ويسير في طريق العراق. ثم ذكر استبعاد أخر، وهو خبث يزيد ورجاسة فطرته، كيف يأذن لهم، ويضاعف نفقة السفر، فبهذا الاستبعاد يسلب الوثوق من كلام الراوي المجهول الذي نقله السيد ابن طاووس في اللهوف، ولم يرد في تلك المجالس ذكر لهذا القصد. هذا خلاصة ما ذكره مع تصرف.

وأيده تلميذه المحدّث القمي، بوجه آخر، وحاصله: أن ثقاة المحدّثين والمؤرخين متفقون، بل إن السيد ابن طاووس نفسه الذي روى حادثة ذهاب أهل البيت كربلاء يوم الأربعين مع جابر، روى أيضًا أن عمر بن سعد اللعين بعد حمل أهل البيت مع رؤوس الشهداء إلى الكوفة، حبسهم حتى أرسل كتابًا إلى يزيد بشأنهم حتى أجابه، والذي يظهر من القضايا العديدة والحكايات المتفرّقة بشأن تسييرهم إلى الشام والمرويّة في الكتب المعتبرة أن مرورهم على القرى والمدن العامرة، حيث تبلغ حوالي ٤٠ منزلًا ... أنتظر البقية ..!

وبذلك نلاحظ أن كلام المحدّث القمي صاحب مفاتيح الجنان في كتابه منتهى الآمال وفي عرضه أدلة المانعين عن مرور أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ على كربلاء بعد خروجهم من الشام، قد استبعد رجوعهم لكربلاء لبعد المسافة وكثرة المنازل، وما ذكر من فترة بقائهم في الشام من شهر وأكثر، كما حكاه السيد ابن طاووس، فلذا استبعد السيد نفسه ذلك في الاقبال. فضلًا عن أنه لم يشر إلى ذلك أحد من المحدّثين الأجلاء أو أحد المعتمدين من أهل السير والتواريخ في المقاتل وغيرها، رغم ذكر مناسبات يقتضي ذكرها فيه !! كما يستفاد ذلك أيضًا من عبارة الشيخ المفيد بشأن سفر أهل البيت نحو المدينة، وقريب منها عبارة ابن الاثير والطبري والكرماني وآخرين، وليس في شيء منها سفرهم إلى العراق، بل المشايخ المفيد والطوسي والكفعمي ذكروا أنه في اليوم العشرين من صفر كان رجوع حرم أبي عبد الله ﴿عليهم السلام﴾ من الشام إلى المدينة، وهو اليوم الذي

ورد فيه جابر بن عبدالله الأنصاري من المدينة إلى كربلاء. وهذا الاحتمال ضعيف أيضًا، وذلك لأن الآخرين مثل صاحب الروضة الشهداء وحبيب السير وغيرهما ممّا نقلوه قيّدوه بيوم الأربعين كما يظهر عبارة السيد أنهم دخلوا كربلاء مع جابر في يوم واحد ومن المسلم أن وصول جابر إلى كربلاء كان في يوم الأربعين. بالإضافة إلى كل ما ذُكر، فإن تفصيل دخول جابر كربلاء جاء في كتاب مصباح الزائر للسيد ابن طاووس وبشارة المصطفى، وكلاهما من الكتب المعتبرة ولم يرد ذكر دخول أهل البيت في ذلك الوقت أصلًا رغم اقتضاء المقام ذكره .. هذا تمام أدلة المانعين، وهي مبنية على أسس قابلة للمناقشة.

فائدة: اعلم أنه ليس في الأخبار ما العلة، في استحباب زيارته صلوات الله عليه في هذا اليوم؟ والمشهور بين الأصحاب أن العلة في ذلك رجوع حرم الحسين صلوات الله عليه في مثل ذلك اليوم إلى كربلاء عند رجوعهم من الشام، وإلحاق علي بن الحسين ﴿عليهما السلام﴾ الرؤوس بالأجساد، وقيل في مثل ذلك اليوم رجعوا إلى المدينة، وكلاهما مستبعدان جدًا لأن الزمان لا يسع ذلك كما يظهر من الأخبار والآثار، وكون ذلك في السنة الأخرى أيضًا مستبعد. ولعل العلة في استحباب الزيارة في هذا اليوم هو أن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه في مثل هذا اليوم وصل من المدينة إلى قبره الشريف وزاره، فكان أول من زاره من الأنس ظاهرًا، فلذلك يستحب التأسي به أو إطلاق أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ في الشام من الحبس والقيد في مثل هذا اليوم، أو علة أخرى لا نعرفها.

قال الكفعمي ﴿رحمه الله﴾ إنما سميت بزيارة الأربعين لأن وقتها يوم العشرين من صفر وذلك لأربعين يومًا من مقتل الحسين ﴿عليه السلام﴾، وهو اليوم الذي ورد فيه جابر بن عبد الله الأنصاري صاحب النبي ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ من المدينة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين ﴿عليه السلام﴾ فكان أول من زاره من الناس وفي هذا اليوم كان رجوع حرم الحسين ﴿عليهم السلام﴾ من الشام إلى المدينة.

تتمحض الإشكالية بالاستبعاد ببعد الطريق وعدم وجود أثر لها في السير والتواريخ، ومن المعلوم ان الاستبعاد والذوق من قياسات العقل، وهي لا تتماشى مع دراسة النص، فالحيثيات الفقهية والعقديّة لا بد أن تخضع لموازين الاستنباط وإلا كان اجتهادًا شخصيًا لا قيمة له، وكان اجتهادًا في قبال النص المرفوض ضرورةً في ديّن الإماميّة !! فاختلاف طريق الشام للمدينة إلى العراق، وقصر فترة السفر و كثرة الوقائع والمنازل و قصور الإمكانية والقدرة وغير ذلك، لا توجب إلغاء النصّ الدال على الواقعة، لعدم بلوغه حدّ الضرورة بل يبقى اجتهادًا، ومثله لا يبرر التحامل على الرأي الآخر وتسفيهه وتصويره أنه جهلٌ وأساطير، أو أنه دخيل على التراث أو شيء من هذا القبيل.

بعد أن فقدنا كثير من الحلقات التي لم يعتنى بها التاريخ بل تجاهلها لأسباب سياسية وعقديّة، تضرّ بالسلطة والمذاهب !! منها تفاصيل ما جرى على أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ في الطف، ودفن الإمام السجاد ﴿عليه السلام﴾ لأبيه والشهداء ﴿عليهم السلام﴾، وما كان في الكوفة والشام من تفاصيل، وما جرى في طريق المدينة. وأمثال ذلك لم ينقلها لنا التاريخ بالدّقة والتفاصيل، ويشهد له ما تقدم من الاختلاف في الشخصيات والأسماء والحوادث ..!!

أما عن استبعاد الطريق بحسب المساحة الجغرافية، حيث ذكر المحدّث النوري ﴿رحمه الله﴾ أن طريق الشام إلى العراق يفترق عن طريق الشام نحو المدينة من نفس الشام، ولا يوجد بين الطريقين قدر مشترك، وقد أيّده تلميذه القمي والشيخ المطهري، لكن بمراجعة الخرائط القديمة يتلاشى الاستبعاد فإن طريق الشام إلى العراق إذا كان عن طريق البادية فهو يشترك مع الشام إلى المدينة في أكثر من ١٢٠ كيلو مترًا.

أقوى أشكال ذكر في أدلة المانعين من عودة حرم الحُسين ﴿عليهم السلام﴾ إلى كربلاء هو الاستبعاد العقلي في المقام، وذلك بحسب الطريق السالك إلى المدينة، إلا أن هذه الإشكالية في غير محلها، لوجود اشتراك بين البلدان الثلاثة

(الشام والعراق والمدينة)، كما تقدم بما يزيد عن ١٢٠ كلم، وليس هذا بعزيز، حيث أن الطرق تنشأ بحسب الأغراض والإمكانيات، وهي في تجدد دائم، وهذا ما يستفاد من كلام السيد ابن طاووس في اللهوف، بل هو في الإقبال لم يستبعد ورودهم كربلاء بسبب عدم اشتراك الطريق وإنما بسبب الزمان، وهذا ما سيأتي عليه الكلام لاحقًا، حيث قال: فرجوعهم إلى كربلاء ممكن، إلا أنه لا يكون وصولهم إليها يوم العشرين من صفر !! ومنه يعلم أنه لا تعارض بين ما نقله في هنا وبين ما ذكره في اللهوف، فما قيل من عدول السيد في كتابه الإقبال ليس صحيحًا، وسبب عدم الدّقة في التأمل !!

اشكالية الاستبعاد ترتكز على ثلاثة أمور:

١. نفي وجود قدر مشترك في الطريق، وذلك إما لنقل المترددين في عصره، وقد عرفت المناقشة فيه، بحصول التغيير دائمًا، بسبب الأغراض والإمكانيات، فكيف لمسألة مضى عليها أكثر من ألف سنة، فالمقام يعرف بالرجوع إلى الخرائط والحوادث والزمان الذي يستغرق في تلك المدة، وهذا ما سيأتي بيانه عن قريب.

٢. اعتماده على ملاحظة طول البلدان الثلاثة (الشام والعراق والمدينة)، وهي أيضًا لا تنفي حصول اشتراك بغرض التجارة والتزود بالمؤن والماء.

٣. لا تقاس الطريقة والحالة التي هم عليها بين الذهاب والإياب. ففي الذهاب كان حرم الحُسين ﴿عليهم السلام﴾ على جمال عجاف وهزيلة، وهم في أسرّ وهوان، أما في حالة رجوعهم بعد أن اظهر يزيد الندامة ظاهرًا، فقد جهزهم بجهاز الولاة، بمرافقة والي المدينة البشير بن النعمان، وأمره أن يقوم على خدمتهم ويلاحظ ذلك في ما ذكره ابن سعد: يزيد أمر الرسل الذين وجههم أن ينزلوا حيث شاءوا ومتى شاءوا، فلو طلبوا الذهاب إلى كربلاء ابتداءًا من الشام أو في الطريق فليس ذلك بمستبعدٍ اصلًا بل هو وارد في حقهم ﴿عليهم السلام﴾.

لا يخفى وجود عدّة طرق من المدينة إلى العراق ومنها إلى الشام، كانت العرب تسلكها معروفة ومعهودة وغيرها، ويشير لذلك النص الوارد في سيرة الإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾ حينما اعترضه الحرّ حيث تأخذ طريقًا وسطًا، ويظهر ذلك من كلام المحدّث الشيخ عباس القمي ﴿رحمه الله﴾ في كتابه النفس المهموم: اعلم إن ترتيب المنازل التي نزلوها في كلّ مرحلة - باتوا بها أم عبروا منها - غير معلوم ولا مذكور في شيء من الكتب المعتبرة، بل ليس في أكثرها سفر أهل بيت الإمام ﴿عليهم السلام﴾ إلى الشام. فلو كان طريق واحد لما حصل جهل به. وهنا غريب منه كيف لم يتمسك به كدليل، وقد اعتبره في نفي وصول حرم الحُسين ﴿عليه السلام﴾ يوم الأربعين !! ولذا بعد نقل سبايا كربلاء إلى الكوفة أبقوهم فيها لفترة قصيرة، ثم أرسلوهم إلى دمشق، ولم يعيّن الطريق الذي سلكه هذا الركب في كتب التاريخ والسيرة كما حكاه المحدث القمي. فمن الضروري قبل الخوض في هذا البحث أن نذكر أهم الطرق التي بين العراق ودمشق، وهي ثلاثة طرق رئيسية، إلا أن كلًا من هذه الطرق كانت له فروع عديدة قصيرة وطويلة في بعض الطريق، وهذا أمر طبيعي.

الطريق الأول: طريق البادية

يبلغ العرض الجغرافي للكوفة حوالي ٣٢، والعرض الجغرافي لدمشق حوالي ٣٣ درجة، ويتميز هذا الطريق بأن البلدين يقعان على مدار واحد ولا حاجة إلى الصعود والنزول على الأرض، وهو أقصر طريق بينهما ويبلغ الخط المستقيم مسافة ٨٦٧ كيلو مترا. ونحن نرى في هذه الأيام المشاة من البصرة وهي تبعد ما يقارب ٦٠٠ كيلو مترا كم يومًا تستغرق، وهؤلاء مشاة. تبيّن من خلال التأمل فيما أوضحناه بشكل مفصّل، أن الطريق البادية (بادية الشام)، يتفق مع ما رواه السيد ابن طاووس من عودة أهل بيت سيد الشهداء إلى كربلاء !! ويشهد لذلك من حيث الفترة الزمنيّة للأربعين ما ذكره السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة أن هناك طريقًا مستقيمًا بين العراق والشام يسلكه أعراب العقيل في زماننا، يقطع خلال اسبوع فقط. وقال أيضًا: أن أعراب صليب وهم من حوران الواقع في قبلة دمشق كانوا يسيرون السير إلى العراق في مدة ثمانية أيام. والشاهد

الثالث، ما ذكره الشيخ المامقاني في التنقيح عن الكشي بإسناده عن أبي خالد التمار أنه أتى خبر موت معاوية إلى الكوفة بعد أسبوع من هلاكه. فإذا عرفت ذلك - تعرف أنه لا غرابة في قطع المسافة في خلال ١٤ يوماً أو أقل - اندفع الاستبعاد الذي تمسك به المحدّث النوري ومن تبعه، بنفي زيارة الإمام السجّاد ﴿عليه السلام﴾ كربلاء .. وهنا تعترضنا مشكلتان:

الأولى: وجود نصوص تدل مكث حرم الحُسين ﴿عليهم السلام﴾ في الشام فترة طويلة تصل إلى شهر وأكثر أو أقل.

الثانية: أن طريق البادية طريقًا صحراويًا ممتد ما بين العراق والشام، ويعرف قديمًا بإسم بادية الشام ومن الواضح عن هذا الطريق لا يسلكه سوى الذين يمتلكون الإمكانيات الكافية - خاصة الماء - لاجتياز المسافة الطويلة بين منازل الطريق الصحراوي، ومع ذلك كان هذا الطريق يكثر فيها المارة بسبب سرعة قطعه.

الطريق الثاني: يمتد هذا الطريق على طول نهر الفرات أحد نهري العراق، وينبع من تركيا ويصبّ في الخليج بعد اجتياز سوريا والعراق، ويتميز هذا الطريق بوفرة الماء والمنازل، حيث كان الكوفيون يسيرون على ضفاف هذا النهر للسفر إلى شمال العراق والشام، ولذا كانت الجيوش الجرّارة والقوافل الكبيرة التي هي بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه مضطرة لسلوك هذا الطريق، وقد سلكه أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ في معركة صفين. ويتّجه هذا الطريق ابتداء من الكوفة نحو الشمال الغربي بمسافة طويلة، ثم ينحدر من هناك نحو الجنوب وينتهي إلى دمشق، ولهذا الطريق تفرّعات عديدة، ويبلغ طوله التقريبي (١١٩٠ إلى ١٣٣٠ كيلو مترا)، وهو طريق مناسب عن طريق البادية الصحراوي.

ممّا مرّ يمكن قبول ما ذكره سبط ابن الجوزي في التذكرة: أن حرم الحُسين ﴿عليه السلام﴾ تركوا الكوفة في ١٥ من محرّم نحو الشام، ثم أنهم وصلوا الشام في ١ صفر، ولبثوا فيه ما يقرب ٨ أيام، ثم توّجهوا إلى كربلاء خلال ٨ إلى ١٠ أيام فتمكنوا من الرجوع إلى كربلاء والدخول فيها في العشرين من صفر، يوم الأربعين.

وهو وإن كان لا يستبعد بحسب ما تقدم من تقريب في قطع المسافة، لكن يخالف بعض الأخبار الدالة على طول بقائهم في الشام، وستأتي مناقشتها.

كما ان الطريق الثاني يتميّز بإمكانيات المدن الواقعة على ضفاف الفرات، وبعضهم رجّح هذا الطريق، لورود بعض الأخبار التي تدل على سلوكه كما جاء في معجم البلدان في التعريف بمدينة حلب في الشام، قال: وفي غربي البلد في سفح جبل قبر المحُسن بن الحُسين ﴿عليه السلام﴾، يزعمون أنه سقط لمّا جيء بالسبي من العراق ليُحمل إلى دمشق، أو طفل كان معهم مات بحلب فدفن هنالك. فإن ثبت ذلك نفى مرور السبايا من طريق البادية، لأن حلب لا تقع على هذا الطريق، إلا أن هذا لا ينفرد به هذا الطريق، وإنما يشترك معه الطريق الثالث الآتي ذكره، فإن مدينة حلب تقع مسارًا لكلا الطريقين.

ومن جهة أخرى إن تعبير الحموي بقوله "يزعمون" تدل على الاستبعاد، وعدم الاعتماد عليه، خاصة وأننا لا نجد في أحداث كربلاء ابنًا باسم المحسن أو زوجة حاملًا للإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾، ولم يرد شيء عنهما في الكتب. وهنا نحتاج لوقفة تأمل في هذه الدعاوي التي لا تستند لدليل سوى الشباك والقبة !! فمجرد حكاية قصة جرت على الألسن لا تكفي في حصول الاطمئنان ما لم يكن لها خلفيّة ومستند واضح، خصوصًا في الأزمنة السالفة التي لم تدوّن الأحداث والوقائع في زمنها، ولم تكن شائعة ومتداولة بالشكل المطلوب، ولم تكن قبورهم جليّة ومعلّمة يكتب عليها في العادة بسبب الظروف والأوضاع، كما إن دوافع الاستغلال والصراع بين القرى والأرياف على التفاخر والوجاهة، تسبب كثرة المقامات والحكايات. وهذا البحث متشعب وواسع وله شواهد كثيرة، ولسنا في مقامه.

بقى علينا التعرض للطريق الآخر وليس الأخير، وان اخترنا ثلاثة طرق لغلبة مرتاديه وشهرته في السيّرة ..

الطريق الثالث: ضفاف دجلة، وأصل النهر من تركيا، ولا يمرّ بالشام، فمن كان يريد السفر إلى شمال العراق يختار ضفافه للسفر إلى هناك. ولم يكن هذا الطريق هو الطريق الرئيسي بين الكوفة ودمشق، وإنما يسيرون مقدارًا منه ثم ينحرفون تدريجيًا نحو الغرب والالتحاق بطريق ضفاف الفرات بعد اجتياز مسافة كبيرة، ثم يدخل دمشق من ذلك الطريق. ويمكن تصور هذا الطريق

ثلاثة أضلاع من مستطيل طوله طريق البادية، والأضلاع الثلاثة الأخرى هي: المسافة المقطوعة من الكوفة نحو الشمال، الطريق باتجاه الغرب، ثم رجوع قسم من الطريق المقطوع نحو الجنوب، ولذلك فإنه أطول من جميع الطريق الأخرى، ويبلغ طوله حدود ١٥٤٥ كيلو مترا ويسمى هذا الطريق: الطريق السلطاني. وهو ما أوجب تصور الاستبعاد في الطريق للمحدّث النوري ﴿رحمه الله﴾ ومن تبعه، وقد عرفت أنه غير لازم اتخاذه، ولا يوافق طبيعة البداوة ولا الإمكانية والظروف التي كان عليها مسير السبايا، خصوصًا ما نحن بصدد إثباته من رجوعهم من الشام إلى كربلاء، فإنه لا يتناسب مع خط الرجوع والمقصد، كما لا يوافق الهيئة التي رجعوا فيها، من الهيبة والتكريم، ولا يوجد شاهد يدل عليه. وما قد يتوهم البعض من قصة راهب الدير مع رأس الإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾ وذلك في قنّسرين الواقعة في شمال الشام، استنادًا إلى رواية ابن شهر آشوب، نقلًا عن النطنزي.

كنّا قد ذكرنا الطريق الثالث من طرق التي يسلكها القاصد من الشام إلى الكوفة ومن ثم المدينة المنورة، وهو ما يعرف بالطريق السلطاني، وهو يقدّر (١٥٤٥ كيلو مترا)، وهو أبعد الطريق وعلى ضفاف دجلة، وقد أستند إليه المحدّث النوري ومن تبعه في استبعاد ذهاب حرم الحُسين ﴿عليه السلام﴾ إلى كربلاء بعد الشام، واستشهد له بقصة راهب الدير المعروفة. ولكن نستبعد هذا الطريق بعدّة شواهد:

١. أنه لا ينحصر فيه المقصد، لوجود طرق أنسب في القرب والمنازل والإمكانيات، فلا يعقل أن يتخذ الطريق الأبعد، من دون أن تكون هناك دواعي ظاهرة كالتجارة وغيرها مع توفر ما هو أنسب كالطريق على نهر الفرات.

٢. ليس متعارف عند البادية اتخاد هذا الطريق حسب ما نقلته الأخبار من حوادث في الطريقين السابقين، لان طبيعته يؤدي شمال شرقي العراق وهو الطريق الرئيسي بين الكوفة ودمشق، ثم ينحرفون تدريجيًا نحو الغرب والالتحاق بطريق ضفاف الفرات بعد اجتياز مسافة طويلة، ثم يدخل على دمشق من ذلك الطريق. وهذا لا يفعله من كان مقصده دمشق فقط.

٣. لا يتناسب مع الهيئة التي كانوا عليها حالة الرجوع من العدّة والعتاد والتجهيز والموكب، حيث كانوا مكرمين بركب والي الكوفة النعمان.

٤. لا توجد شواهد تدل عليه، وما توهم من قصة (راهب الدير)، فهي لا تلازم كون السبايا معه، فمن المحتمل أنهم طافوا بالرأس المطهّر في المدن، ولكنهم أخذوا السبايا عبر طريق آخر، أو يكون ذلك بعد وصولهم دمشق كما يشهد له بعض الأخبار بأن الرأس الشريف طيف به في مدن الشام بعد دخول السبايا هذه المنطقة، كما يقوله صاحب كتاب شرح الأخبار: ثم أمر يزيد اللعين برأس الحُسين ﴿عليه السلام﴾ فطيف به في مدائن الشام وغيرها. فالظاهر أن الرأس الشريف أخذ إلى مناطق، مثل الموصل ونصيبين الواقعتين على الطريق السلطاني، ويظهر ذلك من عدم ذكر لقطة واحدة للسبايا في تلك الطرق.

لا نزال نتحدث في دفع الشاهد الذي تمسك به المانعين من رجوع الإمام زين العابدين ﴿عليه السلام﴾ مع أهل بيته ﴿عليهم السلام﴾ إلى كربلاء، وهو قصة (راهب الدير)، وقد أجبنا عنه بعدم الملازمة بين القصة والسبايا لوجود النص، بالطواف بالرأس فقط في مدن الشام. ونضيف هنا أنه لم يصرّح ابن شهر آشوب الناقل للقصة بمرور السبايا بل اقتصر على ذكر حادثة الرأس المطهّر.

٥. أن بعض المدن التي تقع على الطريق الثالث، كانت موالية لأهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ ولذا صارت تحت سيطرة ونفوذ الحكومات الشيعية على مرّ السنين كالحمدانيّين والفاطميّين، فمن المستبعد أن يقصدونها، مع ما هم عليه من جناية هزت الرأي العام.

٦. قصة الراهب والرأس ذكرت في بعض المواضع الأخرى أيضًا، ومن نفس الناقل لها وهو ابن شهر آشوب، وقد عرف عنه عدم الضبط في النقل والحكاية، فلا يعتمد قوله فيما ينفرد به، وهذا سبب كافي لسقوط تفاصيل القصة دون أصلها، لأنه ذكرها في أوائل الطريق، وهو لا يتلاءم مع قنّسرين الواقعة في أواخر الطريق.

٧. على فرض صحّة رواية ابن شهر آشوب، فلا يمكن القطع بمرور السبايا من الطريق الثالث السلطاني لأن قسمًا من هذا الطريق وطريق الفرات كان مشتركًا، ومنطقة قنّسرين تقع على الطريق المحاذي للفرات أيضًا، بل هي مدينة من مدن الشام، بينها وبين حلب مرحلة، وهي ما تقدّر بثمان فراسخ أي ٤٤ كيلو مترا وهذا يؤكد ما ذكر سابقًا في الشاهد الرابع، من الطواف بالرأس الشريف وحده دون السبايا.

٨. قلنّا لا يوجد مصدر معتبر يعضد هذا الطريق، بل مستنده هو المقتل المنسوب إلى أبي مخنف، وهو من أضعف المصادر، لفقد الأصل والموجود فيه ما لا يناسب شخصية الإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾، مع وجود اختلاف يفوق الحدّ المتعارف بين الكتاب المطبوع وبين بعض مخطوطاته. وهذا ما سلب الثقة به والاعتماد عليه.

الجدير بالذكر بأن الكثير من المحدّثين والمؤرخون اعتبروا كتاب مقتل أبي مخنف المتداول فاقد القيمة العلميّة وغير صالح للاعتماد، كالمحدّث النوري، والشيخ القمي والسيد عبد الحسين شرف الدين والسيد حسن الأمين، والشهيد السيد محمد علي القاضي الطباطبائي وغيرهم. ربّما يقال: ما الداعي للإطالة في البحث بهذا الشكل، فالمسألة واضحة عند الكلّ. الإشكال والدليل الذي أقامه المستبعدون لحضور حرم الحُسين ﴿عليه السلام﴾ كربلاء بعد الشام، ليس بالسهل، فالمسألة ليست كذلك في كتب المحققين والباحثين المعاصرين، فالإشكال أخذ منهم مأخذه في كتبهم وكتب السيرة الحديثة. بقى علينّا إتمام الأدلة التي تدفع الأخذ بالطريق الثالث (السلطاني)، الذي أنتج الاستبعاد.

٩. تنازل البعض - من غير تحقيق - أمام الاستبعاد بالقول بحضور أهل بيت الوحي ﴿عليهم السلام﴾ لكربلاء في السنة ٦٢ للهجرة أي السنة الثانية من الطف، وقال وأفتى به بعض الفقهاء المعاصرين، وهو يخرق القولين من غير مستند. فالقائلين بحضورهم ينقسمون إلى قولين أما في يوم الأربعين أو في نفس السنة، وقريب من صفر، حتى ولو سلمنّا بسلوكهم طريق (السلطاني) الأبعد لا يوجب الأربعين التالية.

١٠. تمسك البعض لرجحان الطريق الثالث، بأن الجهاز الحاكم لاستعراض قوته كان يطوف بالسبايا داخل المدن، وقد اختاروا الطريق (السلطاني) الأبعد لذلك. جوابه أن هذا مجرد تصور ولم يقمّ على أساس علمي، كما أن هذا الوجه يتلاءم مع أخذ الأسرى عبر طريق ضفاف الفرات أيضًا، لأنه يمرّ بمدن عديدة، وبالإضافة أن استعراض القوة لا يقتضي بالطواف بالسبايا ومجموعة صغيرة مؤلفة من النساء والأطفال، فإن هذا الأمر إذا لم يدل على ضعف الجهاز الحاكم، فإنه لا يدل على قوته، بل شهد قوة وشجاعة الإمام السجّاد ﴿عليه السلام﴾، وزينب وفاطمة وأم كلثوم وسكينة ﴿عليهن السلام﴾، والسبايا الآخرين في الكوفة، فكانت السياسة تقتضي اتخاد الأسرى في الطرق للفرعية، ولا يطاف بهم في المدن.

١١. المميّز والمرجّح الوحيد للطريق السلطاني والفرات قبال البادية، هو قربهم للماء، مع أنه ليس مرجّح قوي، بعد كون الركب صغير، والإمكانيات متوفرة، خصوصًا في الرجوع لكربلاء. وإن قيل لا يوجد عندكم دليل على سلوك طريق البادية. قلنّا كذلك أنتم لا يوجد عندكم شاهد على دعواكم، مع أن معرضية الذكر على الطريقين (السلطاني والفرات)، أكثر ولازمه من حيث وفرة المدن والمنازل، فلم تذكر مدينة واحدة من هذين الطريقين. وهذا دليل على سلوك طريق البادية أو الفرعية القصيرة .. يعذرني القارئ على الإطالة في النقطة الأولى التي هي تمام البحث، وذلك لكثرة الشواهد على المدعى، وهو حضور حرم الحُسين ﴿عليه السلام﴾ في كربلاء بعد الشام في أواخر صفر سنة ٦١ للهجرة.

ومن تلك الشواهد بالإضافة لمّا مرّ .

١٢. يفهم من الأخبار التي وصفة خروج آل الرسول ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ من الشام تفيد تمام التجهيز والاستعداد للسفر عبر طريق البادية، ومن تلك النصوص ما ورد في الأخبار الطوال: أمر يزيد بتجهيز هم بأحسن جهاز . وفي طبقات ابن سعد: وجهّزهم بكل شيء، لم يدع لهم حاجةً بالمدينة إلا أمر لهم بها. وغيرهما من النصوص التي يطول بنّا المقام، كلها تفيد القدرة على قطع طريق أقصر وأسهل.

١٣. ليس من السهل والحكمة أن يسيروا بالأسرى على طريق يكثر عليه المارة، وفيه منازل كثيرة، بعد أن أظهر يزيد الحزن والبراءة من قتل الحُسين ﴿عليه السلام﴾، فكان ينبغي أن يتجنب تلك المنازل عن الفضيحة والعار.

١٤. ذكر كتاب الكامل للبهائي ﴿رحمه الله﴾: إن الأنذال الذين حملوا معهم رأس الإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾ من الكوفة كانوا خائفين من أن تقوم القبائل العربية عليهم وتستعيد الرأس الشريف، ولهذا فقد تركوا طريق العراق ولجؤوا إلى الطرق الفرعيّة. وهذا أيضًا دليل على دفع الطريقين، وهي على عكس الفكرة التي تقول ان جهاز الحاكم كان يريد أن يظهر قوته بالطواف بالسبايا داخل المدن، ولم يقدم شاهد عليها.

١٥. من الأصول السياسية المهمة التي تقوم عليها الحكومات في سياستها سُرعة أداء المهمات الخطيرة، وذلك لكي يمكن تلافِ الأخطاء وردود الفعل غير المتوقعة.

لم يبقى مجال للشك في سلوك طريق بين الشام والعراق إلى المدينة، لتوفر جميع الإمكانيات والدوافع كما لا تعارضه الفترة الزمنيّة للأربعين. وهنا تستكمل الدليل على تقريب حصول الزيارة في أيام الأربعين. نعم ليس بالضبط كونها في يوم الأربعين، إنما في العشر الأواخر منها، وذلك بملاحظة الزمن المقطوع في تلك

المسافة عادةً، وهي إحدى الوجوه التي ذكرها المحدّث القمي على استبعاد الطريق، ومن قبله السيد ابن طاووس على وصولهم في يوم الأربعين، ويتوقف ذلك على ذكر مفردات وأرقام تدفع الدعوى، وترفع التوهم.

المفردة الاولى: كان هلاك معاوية يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٦٠ للهجرة، وخروج الإمام الحُسين﴿عليه السلام﴾ من المدينة ٢٨ من نفس الشهر والسنة، أي بعد ١٣ يومًا، مع الالتفات إلى زمن وصول القاصد، وعرض البيعة على الإمام ﴿عليه السلام﴾ وامتناعه، ثم وداعه للنبي ﴿صلّى الله عليه وآله﴾ وتجهيز رحله، مع ان الفاصل بين الشام والحجاز أكثر منه إلى العراق.

الثانية: ذكر الطبري أن بسر بن أرطاة اللعين أمهلُ أبي بكر أن يذهب من الكوفة نحو الشام ويرجع خلال اسبوع، فصار ذهابه إلى معاوية وإيابه إلى بسر في سبعة أيام، فيعلم من ذلك أنه ذهب من الكوفة إلى الشام في ثلاثة أيام ونصف، وكذا حال الرجوع.

الثالثة: مسألة نجاة المختار من الحبس، ذهب عميرة حاملًا رسالة عبدالله بن عمر زوج أخت المختار إلى يزيد وأخذ بكتاب استخلاصه منه، وتوجه نحو الكوفة وسار الطريق في أحد عشر يومًا إلى أن وصل الكوفة.

الرابعة: خروج الإمام الحُسين ﴿عليه السلام﴾ من مكة في الثامن من ذي الحجة والفاصل بينها وبين الكوفة ما يقارب ٣٨٠ فرسخًا والإمام ﴿عليه السلام﴾ ما كان يسرع في السير ووصل كربلاء يوم الثاني من محرم.

ويمكن من تتبعنا في الوقائع أن نصل الى حدّ اطمئنان بل العلم بما قاله سبط ابن الجوزي في التذكرة: أن حرم الحُسين ﴿عليهم السلام﴾ تركوا الكوفة في ١٥ من محرّم نحو الشام، ثم أنهم وصلوا الشام في ١ صفر، ولبثوا فيه ما يقرب ٨

أيام، ثم توّجهوا إلى كربلاء خلال ٨ إلى ١٠ أيام فتمكنوا من الرجوع إلى كربلاء والدخول فيها في العشرين من صفر، يوم الأربعين. لا أقل أن يكون في العشر الأواخر من صفر سنة ٦١ للهجرة، وذلك يتطابق مع جميع الشواهد والأرقام.

نعم تبقى علينا إشكالية النصوص التي تنصّ على بقائهم فترة طويلة في الشام تقتضي استبعاد حضورهم في الأربعين. فتحصل ممّا تقدم إمكان السير في زهاء عشرة أيام، وما ذكره المحدّث النوري ليس إلا هو صرف استبعاد، وبذلك نقف على أجوبة ما جاء في بداية البحث:

الأول: هل طريق الشام يمرّ على كربلاء !!؟

نعم يمرّ طريق الشام على كربلاء بثلاثة طرق (البادية، الفرات، دجلة) والأخير يطلق عليه (السلطاني). وأقرب الطرق طريق بادية الشام، وهو الذي سار عليه الركب الحُسيني في رجوعه إلى كربلاء ومن ثم إلى المدينة.

الثاني: هل مرّ أهل بيت الإمام ﴿عليهم السلام﴾ في عودتهم من الشام على كربلاء !!؟

نعم مرّوا ﴿عليهم السلام﴾ على كربلاء وهم في طريقهم إلى المدينة كما ظهر من قول المؤرخيّن .

الثالث: هل كان وصولهم يوم الأربعين !!؟

قلنّا لا يستبعد ذلك بحسب الزمان والمسافة، إلا أنه لم نقطع بذلك، وإن قام النصّ على حضورهم أيام الزيارة، في صفر.

الرابع: هل الأربعين سنة ٦١ للهجرة !!؟

نعم، زيارتهم ﴿عليهم السلام﴾ كانت في نفس سنة حادثة كربلاء أي سنة ٦١ للهجرة.

الخامس: هل كان جابر بن عبد الله في كربلاء يوم الأربعين سنة ٦١ للهجرة !!؟ نعم كان في كربلاء في سنة ٦١ للهجرة، أيام الأربعين، ولم يشكك في ذلك سوى ما سمعت من المحدّث القمي صاحب مفاتيح الجنان ويعارضه كلام كثير من المحدّثين حتى ابن طاووس حيث صرّح في الإقبال: ولعل العلة في استحباب الزيارة في هذا اليوم هو أن جابر بن عبد الله الأنصاري ﴿رضي الله عنه﴾ في مثل هذا اليوم وصل من المدينة إلى قبره الشريف وزاره بالزيارة التي مر ذكرها، فكان أول من زاره من الانس ظاهرًا، فلذلك يستحب التأسي به أو إطلاق أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ في الشام من الحبس والقيد في مثل هذا اليوم، أو علة أخرى لا نعرفها.

ولم يكن هناك دليل معتبر على لبثهم في الشام شهرًا بل التواريخ المعتبرة تصرّح بكونه أيامًا، من ثمانية إلى عشرة. ثم ان المشهور بين علماء الإمامية ان الرأس المطهر ألحق بالجسد الطاهر في الأربعين الأول. ألحقه الإمام زين العابدين ﴿عليه السلام﴾، وروى المجلسي ﴿رحمه الله﴾ شهرة الأصحاب حول رجوع أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ في العشرين من صفر.

قال الشهيد القاضي الطباطائي: ان رجوع أهل البيت في الأربعين الأول وإلحاق رؤوس الشهداء إلى أجسادهم هو المشهور بين العلماء، وكان موضع وفاقهم إلى القرن السابع.

وأول من أشكل في ذلك السيد ابن طاووس في الإقبال، وأما مسألة لقائهم مع جابر فقد ذكره ابن طاووس وابن نماء، وإنهما وإن لم يصرحا بتحديد يوم الورود، ولكنه كان ذلك في الأربعين حتمًا، لأن أحدًا لم يذكره في غير الأربعين، وهو ما فهمته العلماء.

وقد اتفق العلماء وأرباب المقاتل على تشرّف جابر في يوم الأربعين، حتى من أنكر حضور الإمام زين العابدين ﴿عليه السلام﴾ كالمحدّث القمي في منتهى الآمال

سلّم بذلك بقوله: كما يظهر من عبارة السيد أنهم دخلوا كربلاء مع جابر في يوم واحد ووقت واحد، حيث قال: " فوافوا في وقت واحد" ومن المسلم أن وصول جابر إلى كربلاء كان في يوم الأربعين.

بالإضافة إلى كل ما ذُكر، فإن تفصيل دخول جابر كربلاء جاء في كتاب مصباح الزائر للسيد ابن طاووس وبشارة المصطفى، وكلاهما من الكتب المعتبرة، ولم يرد ذكر دخول أهل البيت في ذلك الوقت أصلًا رغم اقتضاء المقام. أقول: ولا يخفى ان عدم ذكر اللقاء أعم من عدم الوقوع، وهؤلاء لم ينفوا ذلك.

وقد ذكرنا تصريح بعضهم، حول حصول اللقاء مثل أبو ريحان البيروني المتوفى ٤٤٠، وهو زمانًا السيد ابن طاووس حيث توفى ٦٦٤ للهجرة، وكذا من قبله الشيخ ابن النماء المتوفى ٦٤٥ للهجرة، أي قبله ٢٢ عامًا، والشيخ البهائي القرن السابع الهجري، والسيد أبن أبي طالب، والعلامة المجلسي، والقندوزي وغيرهم.

بقى علينا ذكر بعض الأخبار في السؤال السادس، وهي في حصول اللقاء بين الإمام زين العابدين ﴿عليه السلام﴾ والصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري ﴿رضي الله عنه﴾ في كربلاء، في صفر سنة ٦١ للهجرة، ومر علينا الأقوال على شهرة القول عند الأصحاب إلى القرن السابع بل إلى يومنا ما عدا ما ذكرناهم ممن ظهر منهم التوقف في المسألة.

وهو غير مقبول لمّا تقدم من تحقيق في دفع ما استند عليه من بُعد. وهنا الأخبار عديدة تدلّ على حضور جابر فمن ذلك ما رواه الشيخ الكفعمي في المصباح، والشيخ المفيد في مسار الشيعة مرسلا: أن أول من زار قبر الحسين ﴿عليه السلام﴾ جابر بن عبدالله الأنصاري ﴿رضي الله عنه﴾، فقد ورد كربلاء بصحبة التابعي عطية بن سعد العوفي، في العشرين من صفر، بعد مُضيّ أربعين

يومًا على استشهاده ﴿عليه السلام﴾، وأصح الأخبار في المسألة ما رواه الشيخ الصدوق ﴿قدس سره﴾ في أماليه عن فاطمة بنت علي ﴿صلوات الله عليهما﴾: ثم إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين ﴿عليه السلام﴾ فحبسن مع علي بن الحسين ﴿عليهما السلام﴾ في محبس لا يكنهم من حر ولا قر حتى تقشرت وجوههم، ولم يرفع ببيت المقدس حجر عن وجه الأرض إلا وجد تحته دم عبيط، وأبصر الناس الشمس على الحيطان حمراء كأنها الملاحف المعصفرة، إلى أن خرج علي بن الحسين ﴿عليهما السلام﴾ بالنسوة، ورد رأس الحسين ﴿عليه السلام﴾ إلى كربلاء.

وممّا تقدم من شواهد يفترض أن يكون جابر سبق القوم في الزيارة فينطبق عليه أول زائر، بل المستفاد من النصوص سبق جابر عليهم حينما قالوا: فوصلوا إلى موضع المصرع، فوجدوا جابر بن عبدالله. فتحصل أن اللقاء وان كان في يوم واحد، ولكن التشرف بزيارة القبر لم يكن في وقت واحد. وذلك بأن يقال:إن جابرًا بقي في كربلاء فترة، أو قام في الكوفة، أو حواليها ثم عاد إلى كربلاء من جديد لزيارة سيد الشهداء، وهو قريب، حيث لا يمكن له مع كبر سنّه أن يرجع بعد أيام قليلة للمدينة.